فَصلٌ
في ذِكر صالِح عَلَيه السَّلام وقَومِه[١]

ذكره الله في خمسة مواضع، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] الآية. قال الزجاج: الثمد الماء القليل الذي لا مادَّة له، وإنما قال أخاهم لأنه من قبيلتهم، وقد ذكرناه.

واختلفوا في ثمود، فقال الجوهري: ثمود قبيلة من العرب الأولى، وهم قوم صالح[٢]. وكذا قال الفرَّاء: [سمُّوا][٣] ثمود لقلَّة مائهم، وقيل: هو اسم رجل، قال عكرمة: هو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقال جدي في «التبصرة»: هو ثمود ابن جابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: ثمود بن جابر بن سام بن نوح.

قال الكلبي: وكانت هذه القبيلة تنزل وادي القرى إلى البحر والسَّواحل وأطراف الشام، وكانت أعمارهم طويلة، فكانوا يبنون المساكن فتنهدم، فلمَّا طال ذلك عليهم اتخذوا من الجبال بيوتاً فنحتوها وعملوها على هيئة الدور، وكانوا قد عتوا وتجبَّروا.

وأمَّا صالح فاختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه صالح بن عبيد بن جابر بن إرم بن سام بن نوح، قاله مجاهد.

والثاني: صالح بن عبيد بن أنيف بن ماسخ بن خادر بن جابر بن ثمود. وقيل: جاثر بالجيم والثاء. قاله مقاتل.

والثالث: صالح بن كاثوا، قاله الربيع.

والرابع: صالح بن عبيد بن يوسف بن سانح بن عَبيل بن حاذر بن ثمود، قاله مجاهد. قال: وكان بينه وبين هود مئة سنة.

---

(١) انظر قصته في «تاريخ الطبري» ١/ ٢٢٦، وتفسيره ١٢/ ٥٢٥، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٣١، ومروج الذهب ٣/ ٨٣، و«عرائس المجالس» ص ٦٨، و«المنتظم» ١/ ٢٥٥، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٥، و«الكامل» ١/ ٨٩، و«البداية والنهاية» ١/ ١٣٠.

(٢) «الصحاح»: (ثمد).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في (ب)، وبدله في (ل) كلمة: إسحاق، والمثبت من (ط).

وقال مقاتل: وكان في قومه بقايا من قوم عاد على طولهم وهيئتهم، وكان لهم صنم من حديد يدخل فيه الشيطان في السنة مرَّة واحدة ويكلمهم، وكان أبو صالح سادنه، فغار لله وهمَّ بكسره، فناداهم الصنم: اقتلوا كاثوا، فقتلوه ورموه في مغار، فبكت عليه امرأته مدَّة فجاءها ملك فقال: إن زوجك في المغار الفلاني، فجاءت إليه وهو ميِّت، فأحياه الله تعالى، فقام إليها فوطئها في الحال، فعلقت بصالح من ساعتها وعاد كاثوا ميِّتاً. وشبَّ صالح فبعثه الله إلى قومه، ذكره مقاتل بن سليمان في «المبتدأ» له.

واختلفوا متى بعث على قولين:

أحدهما: حين راهق الحلم، قاله وهب. والثاني: لما تمَّ له أربعون سنة، قاله ابن عباس.

قال علماء السِّير: فلمَّا تجبَّروا وطغوا وكفروا بعث الله إليهم صالحاً فدعاهم إلى الله تعالى فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم﴾ أي: ابتدأ خلقكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّ آدم خلق منها وهم منه ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١] أطال أعماركم.

وقال ابن قتيبة: وكان صالح تاجراً[1].

قصة الناقة

روى الوالِبيُّ عن ابن عباس قال: لما دعاهم صالح إلى الله تعالى اقترحوا عليه ناقة لأنهم كانوا أصحاب إبل، وكانت النوق عندهم عزيزة، فطلبوا منه الدَّلالة من حيث ما هم عليه ثمَّ تنطعوا، فقالوا: لتكن سوداء حالكة، عُشَراء ذات عرف وناصية ووبر. فسأل الله فأوحى الله إليه: اخرج بهم إلى فضاءٍ من الأرض، فخرجوا، فقال: من أين تريدونها؟ فأشاروا إلى صخرة وقالوا: من هذه. فأشار إليها صالح وقال: اخرجي بإذن الله، فتمخَّضت تمخض الحامل وانفجرت عن ناقة كما طلبوا، ثم تلاها من الصخرة فصيلٌ لها، فآمن خلق ممَّن حضر، منهم ملكهم جَندع بن عمرو. ثم قال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾[الأعراف: ٧٣] من الكلأ، ليس عليكم مؤونتها ولا علفها ـ وتأكلْ مجزوم بجواب الشرط المقدَّر، والمعنى: إن

(١) «المعارف» ص ٣٠، ومن هنا وقع خرم في (ب) ينتهي في أسماء إبراهيم.

تذروها تأكلْ ـ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾[الأعراف: ٧٣] بعقر.

والسُّوء في القرآن على وجوه: أحدها: العقر كما ذكرنا. والثاني: الشدَّة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩] والثَّالث: الزنا ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١] والرابع: البرص ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢]. والخامس: العذاب ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الزمر: ٦١]. والسادس: الشرك ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨] والسابع: السَّبُّ ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢] والثامن: الضرُّ ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] والتاسع: الذنب ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

ثم قال لهم صالح: لها شِرْب يوم ولكم شِرْب يوم؛ لأنَّ مياههم كانت قليلة، فكانت تشرب ماء الوادي في يوم، ويحلبونها في يوم، فيشربون لبنها عوض ما شربت. ولما ألحَّ عليهم صالح بالموعظة لم يلتفتوا إليه، وعزموا على قتله، وكان يبيت ناحيةً عنهم في مسجد له، فكمنوا له ليلةً تحت صخرةٍ يرصدونه وذلك قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾[النمل: ٤٩] فدعا عليهم فوقعت عليهم الصخرة فقتلتهم، فأصبحوا يقولون: قتلهم صالح. فأجمعوا على عقر النّاقة وقالوا: قد ضايقتنا في الماء والكلأ.

قال مقاتل: أوحى الله إليه: إنَّ قومك سيعقرون ناقتك، فقال لهم صالح: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾[الشمس: ١٣] أي: احذروا قتلها ولا تمنعوها شربها، فقالوا: ما كنا لنفعل، فقال: ما تعقرونها أنتم، بل يوشك أن يولد فيكم مولود يعقرها، قالوا: وما علامته فوالله ما نجده إلَّا قتلناه، فقال: غلامٌ أشقر أزرق أحمر قصير أصهب سناط، وهو أحمر ثمود.

وكان في المدينة شيخان عزيزان لأحدهما ابن يُرغَبُ له عن المناكح، وللآخر ابنة لا يجد لها كفؤاً، فتناكحا، فولد بينهما ذلك المولود، وكان قوم صالح قد وضعوا الشُّرَط مع القوابل يطوفون على النساء، يقتلون كل مولود ولد بهذا الوصف، فلما ولد هذا المولود نظر إليه النساء فصرخن وقلن: هذا والله عاقر الناقة، وأرادوا قتله، فمنعه جدَّاه من القتل، وكانا منيعين.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: حدثنا محمد بن حمدون بإسناده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن زمعة قال: ذكر رسول الله ﷺ عاقرَ النَّاقة، فقال: «انتدب لها رجلٌ

عارمٌ ذو عزٍّ ومَنَعة في قومه كأبي زَمْعَة» وذكر الحديث[١].

وقال الثعلبي: كان أشقر أزرق قصيراً، واسمه قديرة[٢].

وقال الجوهري: قُدار بن سالف[٣]، بالدَّال المهملة. وهو الأصح.

وقال وهب: وكان في المدينة ثمانية رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فانضافوا إلى المولود فصاروا تسعة.

وذكر وهب أسماءهم فقال: مصدع بن دهر، وأسلم، ورهمي، ورهيم، ودعمي، ودعيم، وقبال، وصداق، وقدار بن سالف، قال وهب: وكان الثمانية حاكة، وكان في المدينة امرأتان لهما جمال فرآهما قدار ومهجع[٤]، قال مقاتل: إحداهما اسمها عنيزة بنت غنم، والأخرى صدوف بنت المحيَّا، فقالت صدوف: من يكفينا أمر الناقة؟ فقال قدار: أنا فما لي عندك؟ فقالت: نفسي، وقالت عنيزة للآخر كذلك، فقالا: ميلا علينا بالخمر، فشربا حتى سكرا وطلبا منهما الزنا فقالتا حتى تفرغا من أمر الناقة. وكان قد استغويا النفر الذين سمَّيناهم فخرجوا إلى النَّاقة وهي على الحوض قائمة فضربها قُدار على عرقوبها فوقعت. وقال مجاهد: رماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، ثم شدَّ عليها بالسيف فكسر عرقوبها. ثم نحرها، وقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[الأعراف: ٧٧] من العذاب.

وجاء الخبر إلى صالح فأقبل فرآها كذلك، فوقف يبكي، فجاء قومه يعتذرون إليه ويقولون: إنما عقرها فلان وفلان.

ولما عقرت صعد فصيلها إلى الجبل، فقال لهم صالح: انظروا فإن أدركتموه فعسى أن يُرفَعَ عنكم العذاب. فمضوا خلفه فلم يقدروا عليه. ولما علا على الجبل رغا ثلاثة أصوات، وهذا الجبل يقال له: القارة، وكان قصيراً، فلمَّا قصدوا الفصيل طال إلى عنان السماء. وصعد صالح ورآه، فلمَّا رآه سالت دموع الفصيل على خدَّيه، فقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[هود: ٦٥] لكل رغوة يوم، وآية العذاب أن

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٢٣)، والبخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).

(٢) «عرائس المجالس» ص ٧٠، وفيه: اسم أمه قديرة.

(٣) «الصحاح»: (قدر).

(٤) كذا في (ل)، ولعله «مصدع»، انظر «عرائس المجالس» ص ٧٠.

تصبح وجوهكم في اليوم الأول محمرَّة، وآية العذاب أن تصبح في اليوم الثاني مصفرَّة، والثالث مسودَّة، وذلك في يوم الخميس والجمعة والسبت. وكانوا في ذلك الوقت يسمُّون الأيام بأسمائها القديمة: فيوم الخميس مؤنس، والجمعة عَروبة، والسَّبت شيار.

فأصبحت وجوههم في اليوم الأوَّل كأنما طليت بدم، وفي اليوم الثاني كأنما طليت بالخَلوق، وفي اليوم الثالث كأنما طليت بالقار. ونودوا ألا إن العذاب قد حضر، فتحنَّطوا وتكفَّنوا بالأنطاع، وحفروا قبورهم ونزلوا فيها، ظنّاً منهم أن الله يرحمهم. فإذا بجبريل عليه السَّلام قد ظهر من المشرق، فسدَّ عين الشمس وصاح بهم صيحةً ارتجَّت لها الدنيا وقال: موتوا لعنكم الله. فتقطَّعت قلوبهم في صدورهم وماتوا جميعاً.

وكان رجل منهم يقال له: أبو رغال في حرم مكة، فمنعه الحرم من العذاب، وسنذكره في قصَّة أصحاب الفيل.

قال ابن عباس فذلك معنى قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] ومعنى تمتعوا: عيشوا ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾[هود: ٦٧] أي: هالكين صرعى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ﴾ [هود: ٦٨] أي يقيموا.

قال قتادة: كان مُلْكُ ثمود إلى أن هلكوا مئتين وثمانين سنة، وكان ملكهم جندع بن عمرو، وقد أسلم فنجَّاه الله تعالى، واعتزلهم هو وأخوه، وقال: [من البسيط]

كانَت ثمودُ ذوِي عَزمٍ[1] ومكرُمةٍ ... ما إنْ يضامُ لهمْ في النَّاس من جارِ
فأهلكوا ناقةً كانت لربهمُ ... قَد أنذَرُوها وكانوا غيرَ أبرارِ

قال مقاتل: واسم العذاب الذي عذِّبوا به الطغوى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١﴾[الشمس: ١١] ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ الدمدمة: الهلاك بعنف، وهي صيحة جبريل ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾[الشمس: ١٤] أي: قلب بيوتهم فسوَّاها بالأرض ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾[الشمس: ١٥] أي: العاقر، لأنه لو خاف لما عقرها.

(١) في مروج الذهب ٣/ ٩٠: عزٌّ، ونسب فيه البيتان إلى حباب بن عمرو.

قرأت على شيخنا أبي اليمن الكندي رحمه الله في معنى «فدمدم» حكايةً قرأها على شيخه أبي منصور ابن الجواليقي عن مشايخه، عن الأصمعي قال: أشكل عليَّ في القرآن مواضع، فسألت عنها رجالاً من أهل العلم فلم أجد عندهم علماً منها، فدخلت البادية أطلب العرب الخُلَّص، فنزلتُ على عجوز، قال: والذي أشكل عليَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾[الانشقاق: ١٤] ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾[ق: ١٠] ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾[الرحمن: ٣٥] ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾[الشمس: ١٤] ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[يس: ٣٩].

قال: فأقمت عند العجوز ذلك اليوم فقالت لابنتها: أين العصفور الذي كان ها هنا؟ فقالت: ذهب، فقالت: قومي فانظري ما حاله، فقامت وذهبت، وعادت وبيدها عصفور فأخذته العجوز وقالت: ويحك، ظننتُ أن لن تحورَ. أي: ترجع إلينا، فقلت: هذه واحدة.

ثم قالت: أين أبوك؟ فقالت: عند تلك الباسقة. وأشارت إلى نخلة عالية، فقلت: هذه الثانية.

فقالت: اذهبي إليه ليحضر إلى الضيف، فذهبت وعادت ثم قالت: مضى إلى ذلك النُّحاس. وأشارت إلى دخان بعيدٍ. فقلت هذه الثالثة.

ثم جاءت بقصعة فيها ثريد فأكلت منها ثم قالت: يا بنيَّة اغسلي القصعة ودمديها، فغسلتها وكبَّتها، قال: فقلت: وهذه الرابعة.

ونمت عندهم فلمَّا كان آخر الليل قالت: يا بنية، اجلبي للضيف، فقالت: إنه ليل، فلما طلع الفجر قالت: يا أمَّاه، قد طلع الفجر، فقالت: ومن أين علمت؟ قالت: قد برد عرجوني، يعني خلخالها، قال: فانصرفت وقد استفدت من العجوز جميعَ ذلك.

وقال ابن عباس: كان صالح ينزل الحِجر وبينه وبين وادي القرى ثمانية عشر ميلاً. ولما سار النبي ﷺ إلى تبوك لم ينزل الحجر، وسنذكره في سيرته.

قال مقاتل: وضربت بهم العرب المثل في الشؤم فقالوا: أحمر ثمود، وقالوا في الفصيل: رغا فوقهم سقب السَّماء، فصار مثلاً لكل من يهلكه الله تعالى.

وقال علماء السِّير: لما هلكوا قال صالح لمن آمن معه: إنَّ هذه دار سخط فاظعنوا بنا عنها. واختلفوا أي مكان نزل؟

فقال الحسن: نزل بلاد فلسطين وأقام بالرَّملة.

وقال السُّدي: أهلَّ من ساعته بالحج هو ومن آمن معه في العباء القطواني، وركبوا قلائص مخطمة بحبالٍ من ليف، ثم لبُّوا وأتوا مكة، فأقاموا يتعبَّدون حتى ماتوا، فقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة والحجر.

وكذا قال ابن قتيبة[١].

قال: وأقام في قومه عشرين سنة، وتوفي وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وقيل: ابن ثلاث مئة وست وثلاثين سنة، وقد حكاه الخطيب عن ابن عباس، وهو الأظهر[٢].

وأهل التوراة يقولون: لا ذكر لعاد وثمود فيها، وقد كذبوا الله أصدق القائلين.

وقال ابن قتيبة: كان صالح زاهداً يمشي حافياً ولا يتخذ حذاء، ولا مأوى له إلا المسجد، وكان مع الناقة أينما توجَّهت[٣]. وعيسى بن مريم سلك طريقه في الزُّهد.

ويقال: إن دانيال الأكبر الذي حفر دجلة والفرات كان بين نوح وإبراهيم، وقيل: في أيام صالح، وقيل: بينه وبين هود، وقيل: بعد الطوفان.

وذكروا أنَّ أنفه كان طوله ذراعاً، وهو الذي وجد المسلمون قبره بالعراق في زمان الفتوح، وسنذكره.

وأمَّا دانيال الأصغر فإنَّه كان في زمان بُخْتَنَصَّر، وسنذكره إن شاء الله تعالى في أيام بُخْتَنَصَّر.

ويقال: إنه كان بين هود وصالح مئة سنة، وبين صالح وإبراهيم ست مئة وثلاثون سنة

(١) «المعارف» ص ٢٩ـ٣٠.

(٢) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٣٢، والمنتظم ١/ ٢٥٦.

(٣) «المعارف» ص ٢٩.